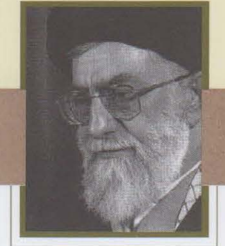


دراسات في فكر
الإمام الخامنئي

ن
نصر ونهضة
أدبيّات النّهوض

روح التوحيد

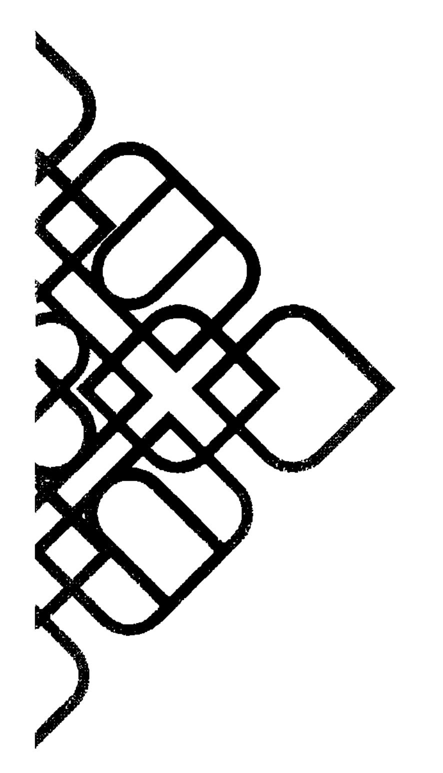
رفض عبوديّة غير اللّه

الإمام الخامنئي





دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah



روح التوحيد
رفض عبوديّة غير اللّه

اسم الكتاب: روح التوحيد؛ رفض عبوديّة غير الله

الكاتب: الإمام الخامنئي (حفظه الله)

الناشر: دار المعارف الحكميّة

إخراج الكتاب: Idea Creation

عدد الصفحات: ٦٤

القياس: ٢١,٥×١٤,٥

تاريخ الطبع: ٢٠١٤

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-025-8

[١٤٣٦ هـ. - ٢٠١٤ م.]





العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣

Email: almaaref@shurouk.org - تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

كلمة المعهد

شكّل التوحيد، على مرّ العصور، الساحة الجامعة لكلّ أتباع الديانات السماويّة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾[1]، وقد كانت مهمّة جميع الأنبياء والرسل الدعوة إليه بكلّ الوسائل والأساليب بغية إعلاء كلمة الحقّ وتحرير الإنسان من عبوديّة غير الله. كما وحمل العلماء وقادة الأمّة نفس الهدف وتوسّلوا نفس الأساليب بالكلمة والموعظة الحسنة وأحيانًا القوّة، وأيّ قوّة، هي قوّة الحقّ للحقّ من غير إيذاء وتمثيل.

ونذكر بهذا الصدد دعوة سماحة الإمام الخامنئي (حفظه الله) في خطبه ولقاءاته إلى التوحيد لله والتوحّد في العالم من أجل مقارعة الظلم والاستكبار، حيث أعلن أنّ كلّ قول أو عمل يؤدّي إلى إثارة نار الاختلاف بين المسلمين، وكلّ إساءة لمقدّسات أيٍّ من الفصائل الإسلاميّة، وأي تكفير لأحد من المذاهب الإسلاميّة، هو خدمة لمعسكر الكفر والشرك وخيانة للإسلام وحرام شرعًا[2].

وليس التوحيد – بحسب رأي الإمام الخامنئي (حفظه الله) – مجرّد أطروحة ترتبط بمسألة نظريّة محضة أو مسألة ذات إطار علميّ محدود، بل هو طريق جديد أمام إنسان يسعى لتقديم أسلوب آخر في العمل والحياة، ويشكّل حجر البناء الأساس في صرح الدين والقاعدة التي يقوم عليها.

وفي هذا السياق، يأتي كتاب **روح التوحيد: رفض عبودية غير الله** ليعرض رؤية الإمام الخامنئي القيميّة حول حقيقة وروح مفهوم التوحيد الإسلاميّ.

والكتاب بأصله عبارة عن مقال قدّمه الإمام الخامنئي، حدّد فيه أبعاد

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) نداء الإمام الخامنئي لحجّاج بيت الله الحرام في ١٤/١٠/٢٠١٣.

المحتوى الحقيقيّ للتوحيد؛ بدءًا بالنظرة العامّة للكون والحياة، وصولًا إلى معانيه على صعيد فهم الإنسان لوحدة أبناء البشر في ارتباطهم بالله وتساويهم في الخلقة والتكوين الإنسانيّ، كما والإمكانات المتاحة لهم لتحقيق غايات التكامل. وتطرّأ للتوحيد على صعيد المناهج الاجتماعيّة، الاقتصاديّة والسياسيّة وغيرها.

وقد أرفق الكتاب ببحث للشيخ شفيق جرادي يقع في مثابة التقديم للمقال المذكور، وذلك في محاولة لرسم الأسس القيميّة في الرؤية التوحيديّة الحضاريّة عند الإمام الخامنئي. والبحث المعنون بـ"الرؤية التوحيديّة وقيم الحضارة الإسلاميّة" قدّمه مؤلفه في مؤتمر **التجديد والاجتهاد الفكريّ عند الإمام الخامنئي** الذي نظّمه **معهد المعارف الحكميّة** عام ٢٠١١.

إنّ **معهد المعارف الحكميّة**، إذ ينشر هذا الكتاب بحلّته هذه، يأمل له أن يكون إسهامًا حقيقيًّا في بثّ روح التوحيد الحقّة وقيمها في مجتمع هو أحوج ما يكون لارتكاز الأبعاد التوحيديّة القيميّة فيه.

والله من وراء المقصد

سكينة أبو حمدان

الرؤية التوحيديّة وقيم الحضارة الإسلاميّة

الشيخ شفيق جرادي[1]

(١) مدير معهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة والفلسفيّة.

منذ اللحظة الأولى لتسلّم الإمام الخامنئي أمانة نهج الاقتدار، ذاك النهج الذي ابتعثه الإمام الخميني (قده)، قرّر سماحته أن يكون الوليّ الرقيب على مسار النهوض الإسلاميّ وفق القواعد التي رسمها الإمام الخميني. كما قرّر أن يُحكّم مفهوم الولاية بكونها الصلة الوثقى بين حكم الله وإرادة الشعب، بحيث إنّ الولاية بما هي اقتدار تتحوّل إلى فراغ عنفيٍّ فيما لو تجاوزت إرادة الشعب وحبّ الناس.

لم يخرج سماحته عن منظومة الرؤية الإسلاميّة الشاملة في بناءاته الناظمة للحكم والسياسة والمجتمع، فقد وضع على رأس هرم الرؤية والبناء النهضويّ مبدأ التوحيد كأصل أوحديٍّ، عنه تصدر الأصول والمرتكزات؛ أصل هو منبع الاقتدار الإسلاميّ وسرّ ديمومته. الأمر الذي يفرض علينا - ونحن نبحث نهج الاقتدار في مسير النهوض الإسلاميّ - أن نبدأ من تحديد الإمام الخامنئي للتوحيد.

التوحيد الإسلاميّ وفق رؤية الخامنئي

انطلق الإمام الخامنئي في معالجة موضوعة التوحيد من كون "هذا المفهوم يشكّل أعمق أسس محتوى الأديان، ولا يناظره مفهوم آخر في عمق اتّجاهه نحو تحرير الإنسان وإنقاذ البشريّة المعذّبة على مسرح التاريخ"[٢]. من هنا، فإنّ "الأنبياء كانوا يطرحون كلّ أهدافهم من خلال شعار التوحيد، كما كانوا يحقّقون تلك الأهداف أو يمهّدون لتحقيقها في أعقاب كفاح ينشب تحت راية هذا الشعار"[٣]. ومن الملاحظ وفق تعريف وتبيان مضمون التوحيد، الصلة الوثيقة للتوحيد بحياة الرسالة وأمّة الإسلام؛ فيما توالي وفيما تعادي. لذا، فإنّ اقتصار تقديم التوحيد على الجانب النظريّ هو تسطيح لهذا المبدأ و"إنّه لمؤسف حقًّا أن يبقى محتوى التوحيد مجهولًا

---

(٢) الإمام الخامنئي، روح التوحيد رفض عبوديّة غير الله، نسخة إلكترونيّة في موقع:
http://www.leader.ir/tree/index

(٣) الإمام الخامنئي، روح التوحيد، مصدر سابق.

أو محرَّفًا أو سطحيًّا لا يتجاوز الإطار الذهنيّ"[٤]، ذلك أنّ "التوحيد لا ينحصر في إطار نظريّة فلسفيّة ذهنيّة – كما هو الشائع – بل هو نظريّة أساسيّة حول الإنسان والعالم، ومنهج اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ للحياة"[٥].

إلّا أنّ هذا لا يعني إغفال البُعد النظريّ في التوحيد، في الوارد عن أمير المؤمنين، عليه السلام، أنّه في حرب الجمل قام شخص وسأل الإمام علي، عليه السلام، عن معنى وحدانيّة الله تعالى، ولكنّ سؤاله هذا واجه موجةً من اعتراض أصحاب الإمام علي، عليه السلام، إلّا أنّ الإمام لم يعترض عليه، بل أجابهم أنّنا نقاتل لأجل هذا الأمر، وجوابه هذا كنايةٌ عن أنّنا نقاتل الناس ونحاربهم لأجل الدفاع عن المعرفة والاعتقاد الصحيحين، ثمّ أجابه على سؤاله بما يلي:

إنّ معنى كونه واحدًا يُتَصوّر على معانٍ أربعة:

١. الواحد بمعنى أنّه لا شريك له ولا نظير.

٢. الواحد بمعنى أنّه ليس مركّبًا ولا قابلًا للتجزئة والتحليل بالعقل.

٣. الواحد بمعنى أنّه واحد بالعدد في مقابل سائر الأعداد الأخرى كالاثنين والثلاثة.

٤. الواحد بمعنى أنّه واحدٌ بالجنس.

فأمّا المعنيان الأوّلان فهما صحيحان ويمكن نسبتهما إلى الله تعالى بخلاف المعنيين الأخيرين.

يخلص الإمام الخامنئي من هذا العرض النظريّ ليؤكّد أنّ هناك شبهات تُثار اليوم في موضوعات التوحيد وينبغي الردّ والتصدّي لها. ثمّ مباشرةً يعود فيرى فيها المنظار العملانيّ، إذ يقول:

إنّ النظام الإسلاميّ مبتني على أساس وقاعدة الفكر والعقيدة، وهو قائم

---

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

وثابت على هذا الأساس المتين، فإذا تزلزل، والعياذ بالله، هذا الأساس سقط بناء النظام وتهدّم. من هنا، فالواجب على الذين لديهم معرفةً دينيّةً أن يتصدّوا للردّ على تلك الشبهات(٦).

لذا، فإنّ المبحث النظريّ بالغ الأهمّيّة في أدبيّاتنا الإسلاميّة وفي نهج الاقتدار الذي يقوده الإمام الخامنئي، وهو بهذا المعنى يوكّد على المعالجة النظريّة.

إلّا أنّ ما هو مرفوض الاقتصار على الجانب النظريّ، فمن الضروريّ رعاية التوحيد العمليّ في عين الاهتمام بالتوحيد النظريّ، إذ لا يخفى أنّ حياة الإنسان مركّبة من الذهن والواقع، من الفكر والعمل. وإذا خضع واحد من هذين الجانبين – بأجمعه أو بقسم منه – لأعداء الله، بحيث يكون الذهن إلهيًّا مثلًا، والواقع غير إلهيّ أو العكس، فإنّ ذلك يحدث اختلال توازنٍ في الهويّة العقائديّة للموحّد. وهو ما عبّر عنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٧).

وإذا كانت مصادر البحث الكلاميّ ركّزت اهتمامها على الجانب النظريّ لموضوعة التوحيد. فإنّ الإمام الخامنئي في الوقت الذي لم يغفل هذا الجانب إلّا أنّه ركّز اهتمامه على البُعد العمليّ، وذلك لخلق التوازن في المفهوم من جهة، وفي شخصيّة المؤمن صاحب الاعتقاد من جهة أخرى. ومقصودنا بالمؤمن هنا، قد يكون فردًا، أو جماعةً، أو نظامًا ودولةً ومؤسّسة. وعليه، ذهب المبحث عند الإمام الخامنئي باتّجاه الكشف عن مكنونات التوحيد في هذه المنظومة، وهو ما يمكن لنا أن نتوفّر عليه في رسالته المسمّاة **روح التوحيد، رفض عبوديّة غير الله**، والتي كان قد صاغها قبل انتصار الثورة. ثمّ إنّ أدبيّاته الشفويّة من توجيه ومواعظ وخطب وغيرها امتلأت بالإشارة إلى مفاصل وأسس التوحيد العمليّ، وصولًا لكشف النظام القيميّ

---

(٦) الإمام علي الخامنئي، **كلمات مضيئة** (دار العصمة، الطبعة ١، ٢٠٠٥)، الصفحتان ٣١١ و٣١٢.

(٧) سورة **البقرة**، الآية ٨٥.

لنهج الاقتدار القائم على مبدإ التوحيد، وهو الأمر الذي سمح بالتمييز بين (توحيد الاقتدار) و(توحيد الخمول والعزلة). إذ السمة الثانية للتوحيد هي التي تتعايش مع واقع الظلم والعبوديّة لغير الله دونما أيّ تأثّر أو حميّة في الموقف. وهذا ما يرفضه المنطق الإسلاميّ ومنهج الحياة الرسوليّة للنبيّ، صلّى الله عليه وآله، والأئمّة الأطهار، عليهم السلام، بل ولكلّ السائرين على صراط الإسلام المحمّديّ الأصيل.

إنّ إخراج التوحيد من الحياة العملانيّة والاقتصار فيه على الجانب النظريّ – الذهنيّ يورث الخمول والعزلة عن الحياة الاجتماعيّة، لذا فإنّ "فهم التوحيد على أنّه نظرة لما وراء الطبيعة، أو أنّه على أحسن الأحوال أطروحة أخلاقيّة عرفانيّة؛ هذا الفهم لا يتناسب إطلاقًا مع الأيديولوجيا الإسلاميّة الحيّة التي تنطوي على أطروحةٍ كاملةٍ للحياة الاجتماعيّة"(٨).

ليس المقصود هنا نفي الجانب الأخلاقيّ والعرفانيّ من حياة الإنسان، فهما يمثّلان العمق المعنويّ للأطروحة الإسلاميّة التوحيديّة، لكنّ المقصود أنّ ابتسار كلّ الرسالة التوحيديّة بهذا البُعد هو بمثابة الإنكار لشموليّة الأطروحة الإسلاميّة المتّسعة لكلّ أبعاد الحياة الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة. وهذا ما يودّ أن يؤسّس له الإمام الخامنئي حينما يتحدّث عن التوحيد كأصل بانٍ لكلّ المنظومة، أو الأطروحة الإسلاميّة المحمّديّة. فمنذ اللحظة الأولى لطَرح التوحيد على المجتمع الجاهليّ، فهِم الجميع ممّن سمع نداء الإسلام أنّه دعوة انقلابيّة في حياة الفرد والمجتمع على مستوى القيم والنظم، وهذا ما يقتضي تقديم التوحيد كرؤية عامّة أجملها الإمام الخامنئي في رسالته روح التوحيد، بالميادين التالية:

أ. التوحيد على صعيد التصوّر

بما يعني من وحدة جميع العالم وانسجامه وائتلاف أجزائه وعناصره،

---

(٨) الإمام الخامنئي، روح التوحيد، مصدر سابق.

ممّا يكشف عن وحدة الخالق المدبّر ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾[٩]. كما يكشف أنّ للعالم هدفًا ويقوم على أساس حساب وانضباط دقيق، وأنّ لكلّ جزء من أجزاء العالم روحًا ومعنًى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[١٠]. فكلّ ما في الوجود يوحّد الله طائعًا، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾[١١].

ب. التوحيد على صعيد الفهم للإنسان

وهو يعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في ارتباطهم بالله سبحانه، فالله إله الجميع ولا ميزةً لفرد على آخر أو لشعب على شعب إلّا بالعمل الصالح والسعي والمثابرة في خدمة الناس التزامًا بأحكام الله سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[١٢]. بناءً على ذلك، فإنّ الله جهّز الناس جميعًا بكافّة إمكانات الرقيّ والسموّ والتكامل.

وعليه، فكلّ سيطرة لغير الله على الناس هي نحو من العبوديّة الممقوتة، والتوحيد يرفض هذا الشكل من الحياة، ويعتبر الإنسان عبدًا لله فقط، ويحرّره من العبوديّة والرضوخ لكلّ نظام، بل لكلّ عامل مسيطر يضع نفسه مكان الله. فالتوحيد يعني التسليم لله وحده، ويستتبع ذلك رفض كلّ سلطة غير سلطة الله مهما كان شكلها ونوعها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[١٣].

ج. التوحيد كحاكم على علاقات الإنسان

إنّ الإنسان في الرؤية التوحيديّة التي يقدّمها الإمام الخامنئي، جزء منسجم مع محيط العالم الذي يلفّه ويحويه، وهو في الوقت الذي تتحكّم

---

(٩) سورة الملك، الآية ٣.

(١٠) سورة الأنبياء، الآية ١٦.

(١١) سورة مريم، الآية ٩٣.

(١٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(١٣) سورة يوسف، الآية ٤٠.

فيه قوانين هذا العالم، فإنّه يتميّز بقوانين خاصّة تنسجم مع السنن الكونيّة العامّة. فالإنسان يتمتّع بقوّة إرادة وقدرة اختيار، وعليه أن يطوي طريقه الفطريّ الطبيعيّ عن اختيار، لأنّه طريق سموّه وكماله. وهذا يعني أنّه قادر على الانحراف عن هذا الطريق الطبيعيّ ﴿فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ (١٤).

وعليه، فالتوحيد هو الدعوة للإنسان للانسجام والتوازن مع قوانين وسنن العالم ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

د. التوحيد على صعيد النظم الإنسانيّة

ومفاده سلب كلّ نظام يستقلّ عن الإرادة الإلهيّة في إدارة حياة الإنسان، وأنّ الله هو الحاكم في حياة الناس وإدارتها. عليه، فإنّ ولاية الإنسان على الإنسان لو قامت على أساس حقّ مستقلّ وبدون مسؤوليّة لاستلزمت الظلم والطغيان والعدوان. والفرد والجهاز الحاكم لا يستطيع أن يتخلّص من الانحراف والطغيان والإفراط إلّا إذا كانت زمام الأمور معطاة بيد هذا الفرد أو هذا الجهاز من قبل سلطة عُليا ضمن إطار مسؤوليّات متناسبة. وهذه السلطة العليا في المدرسة الدينيّة هي الله المحيط بكلّ شيء علمًا ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ (١٦). بناءً عليه، فقد حدّد ضمن هذا القسم التوحيديّ جملة مهام ملقاة على كاهل الإنسان وأمام وجدانه الإنسانيّ في علاقته مع الناس على أسس توحيديّة منها:

- أنّ الحكم خاص بالله، ينفّذه من أرادهم الله، وهم منفّذون وحفظة للقوانين الإلهيّة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ

---

(١٤) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(١٥) سورة آل عمران، الآية ٨٣.

(١٦) سورة سبأ، الآية ٣.

الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧)، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (١٨).

- أنّ كلّ ما يمتلكه الإنسان إن هو إلّا أمانةً من الله المالك الأوحد وضعها بيده ليستثمرها فيما يرضي الله وخدمة الناس وللاستعانة بها على طريق السموّ والتكامل.
- وظيفة الإنسان في نعم الله وكنوز الأرض هو استثمارها بشكل صحيح وعادل، وفتح مغاليق كنوزها، والناس في هذه الغاية متساوون.
- أنّ وظيفة الموحّد هو كسر صنميّة الآلهة المزيّفة ونزع الأصفاد والأغلال عن نفوس الناس وإراداتهم الخلّاقة.

بناءً على ذلك، فقد اعتبر الإمام الخامنئي أنّ أكثر الناس تضرّرًا، وبالتالي عدائيةً لمنهج التوحيد هم أكثر الطغيان والاستكبار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٩).

ويقوم الإمام الخامنئي باستعراض عشرات الآيات من كلام الله العزيز بشأن الاستكبار، فيقول:

نستطيع أن نفهم المستكبر على النحو التالي: الجناح المسيطر في المجتمع الجاهليّ، الماسك – دون استحقاق – بزمام السلطة السياسيّة والاقتصاديّة، واستمرارًا لاستثماره وتسلّطه الجائر يمسك أيضًا بزمام الأفكار والمعتقدات المسيطرة على الأذهان، ويعمل بأساليب متنوّعة على ملء الأذهان بأفكار تدفع الأفراد إلى الاستسلام له وإلى الانسجام مع الأوضاع القائمة، وهذا المستكبر يهبّ لمقارعة كلّ دعوة إلى التوعية، فما بالك إذا كانت الدعوة انقلابيّة تغييريّة.

وحتّى تُستكمل صورة العرض النظريّ للمستكبرين – حسب الفهم

---

(١٧) سورة الأنعام، الآية ١٤.

(١٨) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(١٩) سورة الصافات، الآية ٣٥.

الخاص بالنهج التوحيديّ – فلا بدّ من تحديد من هم المستضعفون وما معنى العبوديّة، ذلك أنّ أيّ نظام جاهليّ ينقسم إلى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة، والدين الذي يتبنّاه الناس في المجتمعات الجاهليّة هو الشرك، لارتباطهم بآلهة متعدّدة بتعدّد مراكز القوّة والسيطرة التي تستثمر الناس على طريق أهوائها. فالشرك إن هو إلّا تأليه أفراد إلى جانب الله أو بدلاً من الله، وبتعبير آخر، هو إيكال أمور الحياة إلى غير الله.

أمّا التوحيد، فإنّه يقع في النقطة المقابلة للشرك تمامًا، إذ يرفض كلّ هذه الآلهة، ويرفض التسليم لها، بل يقاوم سيطرتها، ويحصّن القلوب من الركون إليها، ويدفع إلى إزالتها وطردها، ويشدّ الكائن الإنسانيّ بكلّ وجوده إلى الله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [٢٠]، وفي ذلك، التأكيد على "الإيمان بحاكميّة الله وحدها في الحياة، ورفض الآلهة المزيّفة، والارتباط به وحده وتمزيق كلّ قيود العبوديّة الأخرى".

أخيرًا، فإنّ مقتضى معنى العبوديّة، حسب النهج التوحيديّ، يقول فيه الإمام الخامنئي:

> نخلص إلى أنّ العبادة في المفهوم القرآنيّ هي: الاتباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعيّة أو وهميّة، طوعًا ورغبةً أو كرهًا وإلزامًا، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنوي أو بدونه، هذه القدرة هي المعبود وهذا المطيع هو العبد والعابد. من خلال المفاهيم المتقدّمة يتبيّن معنى لفظة الألوهيّة ولفظة الله باعتبارهما تعبيرًا عن كلمة المعبود[٢١].

إلى هنا كنّا مع الإطار النظريّ للمعالجة المفاهيميّة للتوحيد والتوحيد العمليّ، وما يرتبط به من أفكار وتحديدات تأسيسيّة رسمها الإمام الخامنئي، وكان لها بالغ التأثير في ميادين الحراك النهضويّ للمشروع الإسلاميّ الذي ابتعثه في عالمنا المعاصر الإمام الراحل (قده)، والذي يقود

(٢٠) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٢١) الإمام الخامنئي، روح التوحيد، مصدر سابق.

حراكه وتكاملاته ويتولّى إدارته ورقابة السائرين عليه الإمام الخامنئي.

التوحيد في منظومة المشروع الإسلاميّ عند الإمام الخامنئي

ينطلق الإمام الخامنئي في حديثه عن المشروع الإسلاميّ من الأسس والركائز التي وضعها الإمام الخميني (قده)، ويعتبر نفسه في مقام ولايته أنّه المستأمن على تلك الأسس والركائز. ثمّ إنّه يعتبر أنّ الثورة الإسلاميّة حينما برق نورها بما صدع به الإمام الخميني، أنارت الطريق المظلم أمام الشعوب المستضعفة، وأنّ أهمّ ما تحمله هذه الثورة هي القيم الإسلاميّة القابلة للتوسّع والانتشار في عالم الإنسان، والتوق للتحرّر والتكامل. من هنا، فقد حدّد الإمام الخامنئي خمس مراحل للحراك النهضويّ الإسلاميّ

> إنّنا قمنا بثورة إسلاميّة، ثمّ أقمنا نظامًا إسلاميًّا، ثمّ جاء دور إقامة الدولة الإسلاميّة، تليها إقامة دول إسلاميّة، ثمّ تأتي مرحلة قيام الحضارة الإسلاميّة العالميّة، ونحن حاليًّا في مرحلة الدولة الإسلاميّة والبلاد الإسلاميّة[(٢٢)].

إنّ هذا النصّ الذي رسم فيه الإمام الخامنئي (حفظه المولى) الإطار العامّ للمنطلق والمسار والهدف المتوخّى للمشروع الإسلاميّ النهضويّ يحمل في طيّاته جملة أمور منها:

أ. المرحليّة الواعية والهادئة التي تحتضن كلّ التحفّز نحو تحقيق الهدف الإلهيّ النهائيّ وهو قيام حضارة الإسلام العالميّة، والملفت في هذه المراحل اعتمادها على خطوط النتائج بدل المرحليّة في الأساليب؛ وهي الطريقة القديمة التي كانت تعتمدها الحركات الإسلاميّة قبل نهضة الإمام الخميني (قده)، والمرحليّة في عناوين النتائج تحتوي المرونة في مضمون الأساليب التي يمكن اعتمادها. كما تحتوي على الثقة بالله والنفس في تحقيق الإنجازات الأكيدة

(٢٢) الإمام الخامنئي، حفل تخريج وتحليف الطلاب في الكلّيّة العسكريّة (طهران، ٢٠ شعبان ١٤٢٥هـ).

والواضحة.

ب. انقسام المراحل الخمس إلى ثلاثة عناوين: اليقظة والبناء الواعي وهي مراحل ما قبل الدولة، ثمّ مرحلة بناء نموذج أو نماذج الدولة والحكم الإسلاميّ، ثمّ وفي المرحلة الأخيرة الحضارة. أي بمعنى آخر: الثورة، الدولة، الحضارة.

ج. إنّ مقتضى الوحدة في سياق هذا الحراك أن تقوم على وحدة القيم والأهداف؛ والسؤال هل هذا هو الحاصل في مسيرة النهضة التي قامت على نهج الاقتدار الذي يقوده الإمام الخامنئي؟

د. ثمّ أخيرًا، من حقّ المرء أن يسأل ويستفسر عن موقع مبدإ التوحيد في هذا المسار النهضويّ؛ ومقصودنا هنا، التوحيد بالطريقة التي قدّمها الإمام الخامنئي؟

للإجابة، علينا أن نتلمّس بعض الوجوه العامّة التي لو التقطناها في نصوص وأدبيّات الإمام الخامنئي لأمكن لنا رسم الإطار العملانيّ القائم على بناءات وقواعد نظريّة، أو مبدأ التوحيد وحاكميّته في الحياة، ومن ذلك قوله:

١. "علينا أن نسعى إلى تحقيق العدالة والقيم الإسلاميّة في المجتمع، وأن نخلق من المجتمع مجتمعًا دينيًّا وإسلاميًّا"[٢٣].

٢. ذهابه إلى أنّ الأصل الذي عنه يصدر المشروع النهضويّ الإسلاميّ المعاصر إنمّا هو فكر ونهوض وقيادة الإمام الخميني، وهو النهج الذي شرح الإمام الخامنئي بعض مفاصل أبعاده في بحث مستقلّ ذهب فيه إلى أنّ نهج الإمام فيه أبعاد منها:

البُعد الأوّل: امتزاج المعنويّات بالسياسة

حيث ترى امتزاج السياسة بالعرفان والأخلاق، وكانت جميع مواقف الإمام، قدّس الله سرّه، تدور حول محوريّة الله عزّ وجلّ، حيث كان مؤمنًا

(٢٣) الإمام الخامنئي، حفل تخريج وتحليف الطلاب في الكلّيّة العسكريّة (طهران: ٢٠ شعبان ١٤٢٥هـ).

بإرادته التشريعيّة وموقنًا بإرادته التكوينيّة، وكان عالمًا أنّ الذي يسعى إلى تحقيق الشريعة الإلهيّة سيحظى بمساعدة قوانين الخليقة[٢٤]. واستفاد إمام الأمّة من ذلك، أنّ حذف المعنويّات عن الجهاز السياسيّ هو إذلال للشعب.

البُعد الثاني: موقع ودور الأمّة الاستثنائيّ

في حراك الإمام الخميني ما شكّل قناعة عند الإمام الخامنئي أنّ الديمقراطيّة الحقيقيّة هي تلك التي رسمها الإمام الراحل، قدّس الله سرّه، وأنّها تختلف عن الديمقراطيّة الأمريكيّة المزيّفة. من هنا، "فإنّ الذي جاء بالديمقراطيّة هو الإمام والثورة ونظامنا الإسلاميّ"[٢٥].

البُعد الثالث: الرؤية العالميّة والشموليّة في منهج الإمام السياسيّ

"حيث لم يقتصر نداؤه على الشعب الإيرانيّ فقط، وإنّما تعدّاه إلى جميع الأمّة، بل وكافّة البشريّة، وهذه هي الرسالة الملقاة على عاتق المسلم"[٢٦]، إنّ هذا القول للإمام الخامنئي هو تعبير جديد عن فهمه لحضور نهج الإمام قدّس الله سرّه، في كافّة مراحل النهضة الإسلاميّة.

البُعد الرابع: صيانة القيم من خلال تبنّي ولاية الفقيه

حاول البعض تعريف ولاية الفقيه بوصفها الحكومة الفرديّة المطلقة، وهذا كذب، إذ إنّ ولاية الفقيه، وفقًا لقانوننا الأساسيّ، لا تنفي مسؤوليّات الأركان المسؤولة في الدولة. فليس لولاية الفقيه سوى دور هندسة النظام، وحفظ مسيرته من الانحراف.

إنّ هذه المسؤوليّة - الملقاة على عاتق ولاية الفقيه - الحسّاسة والخطيرة تقوم بدورها على أسس وضوابط دينيّة، كما تقوم على رأي الناس وإرادتهم، فالمعيار في ولاية الفقيه معنويّ، خلافًا للمعايير في النظم الرأسماليّة فإنّها

---

(٢٤) الإمام الخامنئي، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخميني (طهران: ١٤٢٥هـ).

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه.

مادّيّة محضة.

فالمعيار في ولاية الفقيه يقوم على العلم والتقوى والدراية، والعلم يستتبع وعيًا، والتقوى شجاعة، والدراية مصالح البلاد وشعبها، ولو افتقد متسنّح هذا المنصب واحدًا من هذه الأسس سقطت كفاءته حتّى وإن حظي بدعم أفراد الشعب. فرأي الناس مؤثّر في إطار هذه الضوابط، ومن جهة أخرى إذا توفّرت هذه المعايير في شخص وتمّ انتخابه برأي الجماهير عن طريق مجلس الخبراء، لا يمكنه أن يقول قد توفّرت في هذه الضوابط، فعلى الناس أن يستجيبوا لي، فحق الانتخاب بيد الناس[٢٧].

إنّ نصّ هذا البُعد بالغ الأهمّيّة لما يحوي من الحقائق التالية:

أ. إنّ نظام القيم الإسلاميّ مرتبط على المستوى النظريّ بمبدإ الولاية بمفهومها الوارد في العقائد والأخلاق والعرفان، ثمّ إنّ هناك قيمًا تستظلّ في مبدئيّة ولاية الفقيه كمضمون يعبّر عن الحاكميّة السياسيّة والاجتماعيّة، وكناظم لجماعة المسلمين. وهذه المبدئيّة هي نظام يشمل أركان الجماعة أو الأمّة المسلمة، ولا يقتصر على الفرد وحاكميّته المطلقة، إذ مثل هذه الحاكميّة هي على طرف نقيض مع القيم الإلهيّة، وبالتالي مع المعنى الذي تحمله حاكميّة ولاية الفقيه.

ب. إنّ مشروعيّة الولاية لا يمكن أن تكون ذاتيّة أو إداريّة فهي بالأصل نابعة من الدين نفسه، ثمّ إنّها مشروعيّة شعبيّة مرجعها إرادة الناس. لذا، فإنّ الولاية لله أولاها من يتمتّع بمواصفات حفظ هذه الأمانة وتعيين الشخص القادر على التصدّي لهذه المهمّة وإن أخذ شكلًا شوريًّا إداريًّا نظاميًّا من خلال مجلس الخبراء، فإنّ المرجعيّة النهائيّة في هذا الاستحقاق التعيينيّ إنّما يعود للناس

(٢٧) الإمام الخامنئي، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخميني (طهران: ١٤٢٥هـ).

ومستوى إيمانهم وتفاعلهم مع الوليّ.

ج. إنّ الدور الفعليّ لوليّ الأمر هو هندسة النظام بمعنى رسم الحيثيّة الشرعيّة في إدارة الحكم وطبيعة النظام وفق الأهداف الإلهيّة والمطامح الشعبيّة والتشريع الفقهيّ، وهنا ضرورة أن يكون الوليّ فقيهًا بمعنى صاحب علم ودراية. كما أنّ دوره حفظ المبادئ التي انطلقت منها الثورة، وعلى أساسها بُنيت الدولة، ومن روحها ينبع طموح بناء الحضارة العالميّة التي تلحظ شعوب العالم. ولهذا السبب، فإنّ التفاصيل في إدارة حركة الأهداف إنّما يقوم بها مَن هم في موقع المسؤوليّة من أركان الدولة أو القيادات الشعبيّة والحزبيّة.

د. ثمّ إنّ التركيز المفصليّ في أنّ المضمون الذي تستند عليه الولاية هي نظام قيميّ إلهيّ يقع على طرف النقيض الحضاريّ للمادّيّة الرأسماليّة، لا بمعنى أنّ الدين لا يولي اهتمامًا للجوانب المادّيّة، بل بمعنى أنّ حركة الدنيا وشؤونها الماديّة موصولة بغايات إلهيّة تشكّل روح الحراك الدنيويّ. فالقيم الإلهيّة من مثل: العلم، والتقوى، والدراية، تستتبع وعيًا، وفهمًا، متبصّرًا بالوقائع وشجاعة في التصدّي، والصمود أمام المخاطر والزلازل، فمن يتّقي الله يجعل له مخرجًا من كلّ سوء بسبب ثقته واعتماده على الله ورعاية حكيمة لمصالح البلاد والعباد بسبب الدراية الخيِّرة التي حثّت القيم الإسلاميّة على التحلّي بها.

البُعد الخامس: العدالة الاجتماعيّة

إذ إنّ أهمّ ما يميّز المنهج السياسيّ عند الإمام الخميني هو "بُعد العدالة الاجتماعيّة، فلا بدَّ لنا في هذا المنهج من جعل العدالة نصب أعيننا في جميع أركان الحكومة وقواها التقنينيّة والقضائيّة، وإلغاء الفواصل

الطبقيّة"[٢٨].

مع هذا البُعد الخامس، نستكشف الثوابت الخمينيّة التي عمل وما زال الإمام الخامنئي على بلورتها وتسييلها في الواقع الحيّ للتجربة الإسلاميّة النهضويّة القائمة على نهج الاقتدار.

١. حفظ روح الشهادة في الأمّة وجعلها معيار صحّة وسلامة الاقتدار المباشر على مستوى القوّة العسكريّة أو النهوض الاقتداريّ ببقيّة مرافق بناء الحضارة الإسلاميّة من العلم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك. وبهذا الصدد يقول سماحته:

إنّ قضيّة الشهادة قضيّة عميقة ومهمّة جدًّا، وشعبنا حلّ هذه القضيّة عمليًّا بإيمانه ومشاعره الدينيّة وشجاعته. ولو أردنا عرض قضيّة الشهادة وأهمّيتها في جملة واحدة لقلنا: إنّ الاعتقاد بالشهادة والإيمان بعظمة الشهداء يمثّل بالنسبة لأيّ شعب العمق المعنويّ لشخصيّة ذلك الشعب وهويّته. كيف يمكن لشعب أن يعرف بالعظمة في أعين شعوب العالم؟ وكيف يمكن للشعب بدل أن يتأثّر بشتّى العوامل السياسيّة في العالم أن يترك تأثيره في جميع الأحداث في العالم؟ كيف يمكن للشعب بلوغ هذه المكانة؟

حينما يتقبّل شعب بجميع أبنائه وشبابه وآبائه وأمّهاته الإيثار في سبيل الله والتضحية بالنفس في سبيل الهدف الإلهيّ ويؤمنون به، فسوف يكتسب هذا الشعب عمقًا هائلًا من العظمة. ومن الطبيعيّ أن يكون هذا الشعب مقتدرًا، وقويًّا، ومتفوّقًا، من دون أن يكون له سلاح ومن دون أن يمتلك ثروة نقديّة مميّزة.

يخلص سماحته من كلّ ذلك ليقول: "إنّ النصر منوط باقتدار لا يتأتّى بالمال والإمكانيّات المادّيّة والسلاح النوويّ، إنّما ينبع من الإيمان بالشهادة والإيثار والاعتقاد بأنّ الإنسان حينما يضحّي إنّما يتاجر ويتعامل مع

---

(٢٨) الإمام الخامنئي، خلال استقبال الوفود المشاركة في الذكرى ١٥ لرحيل الإمام الخميني (طهران: ١٤٢٥هـ).

الله"[٢٩].

أكتفي هنا بهذه النقاط الثلاث رغم إمكانيّة حشد الكثير من الشواهد والنصوص التي توضح بما لا يقبل الشكّ حفظ المعنويّة المبنيّة على مبدإ التوحيد في كلّ سياق الفهم والعمل الذي أرساه سماحته، لكنّي أودّ أن أطوي هذه المرحلة من الكلام بذكر نصّين يحدّد من خلالهما ارتباط التوحيد المعنويّ في حركة المجاهد، وفي حياة صاحب أيّ مهنة وعمل يريد به وجه الله.

النصّ الأوّل

إنّ التعبويّ هو الذي يهتمّ بقيم الإسلام، ويعتقد بالله ويخضع لأوامر ربّ العالمين، وهو الصالح المليء قلبه بالخير والصلاح، والمطهّر من الرذائل، وهو الذي يرغب أن يزيد أنسه بالله دومًا. التعبويّ هو همّة عالية ويسعى لأجل سموّ البلد ورفعته، وهدفه إنقاذ البشريّة، والقضاء على الفساد، والفقر، والظلم، والتمييز العنصريّ والتسلّط، يرفض العيش تحت المظلّة الأمريكيّة، وهو ذلك الإنسان الذي يهمّه من يحكم بلده[٣٠].

من المعروف الحجم الكبير الذي يوليه نهج الاقتدار بإمامة الخامنئي للمقاومة والتعبئة، ومن المعروف سعة الرقعة التي يشملها عنوان التعبئة والتعبويّ، بحيث تضمّ كلّ شرائح الشعب. من هنا، فإنّ تعريفه للتعبويّ يساوي تعريفه للفرد المنضمّ إلى أمّة نهج الاقتدار. فالتعبويّ هو المتحلّي بقيم الإسلام القائمة على الاعتقاد بالله والعمل على طاعته وخدمة عباده وإعمار بلاده.

وهو المرتبط بقضايا الحياة الأساسيّة يرفض التبعيّة لأمريكا لأنّها الخصم الحضاريّ لحضارة قيم الاقتدار الإسلاميّة، وهو الواعي الذي

(٢٩) الإمام الخامنئي، من كلمته في عوائل الشهداء والموقّفين بقم، ٢٠/١٠/٢٠١٠.

(٣٠) الإمام الخامنئي، كلمة ألقيت في أسبوع التعبئة (طهران: رجب ١٤١٦هـ).

يرسم الحياة السياسيّة للبلد الذي يحيا فيه باعتباره الوطن الذي ينتمي إليه ويمكّنه التأثير الفاعل في مجرياته.

النصّ الثاني

وهو يرتبط بالحياة المدنيّة – الوظيفيّة (المهنة)، بحيث يصبح العامل في أيّ مهنة جزءًا من المشروع التوحيديّ العامل على نهوض الأمّة بمقتضى نهج الاقتدار "إنّها لمفخرة كبرى أن يشعر المرء في أجواء المهنة التي يحترفها أن يعمل لغايات إلهيّة وللدفاع عن هويّته وشخصيّته وعن استقلال شعب يعيش في عالم يملؤه الظلم[٣١].

ملامح التوحيد في مسار الحياة الإنسانيّة

يذهب الإمام الخامنئي إلى أنّ الإنسان هو المخوَّل تكوينيًّا برسم مسار حياته، وأنّ الإرادة والاختيار التي أولاه الله سبحانه إيّاها هي مصدر صناعة قدر الإنسان. لكنّ مقتضى نجاح الإنسان في نتائج اختياراته ينبغي أن ترتبط بمبدإ التوحيد وتجلّياته على مسرح حياة الإنسان. وبهذا الصدد يقول سماحته:

إنّني ذكرت بالنسبة لمفهوم القدر أنّ الاختيار بيدكم، وهذا ممّا لا شكّ فيه، ولكن مع ذلك، لا بدّ أن تأخذوا دور الهداية والتوفيق الإلهيّ بنظر الاعتبار، فقد يصاب أحدكم بالتعب أثناء الطريق فيستمدّ العون من الله، فيستجيب الله له ويمدّه بالقوّة فيواصل السير، وتارة يتردّد بالاختيار فيطلب الهداية من الله فيهديه[٣٢].

لذا، ينبغي للمرء في حياته الرساليّة والجهاديّة أن يربط نفسه بالمدد والهداية الإلهيّة التي منها تنبعث معالم القدرة ومظاهر نهج الاقتدار، بحيث يمكن لنا القول: إنّ المسلم الرساليّ – حسب نهج الاقتدار– سواءً

---

(٣١) الإمام الخامنئي، كلمته بحضور قادة الجيش، ٢٠ ذي الحجة ١٤١٨هـ.

(٣٢) الإمام الخامنئي، كلمة خلال لقاء الشباب والأساتذة الجامعيين (طهران: ٧ تموز ٢٠٠٤).

أكان في حال الثورة، أم بناء الدولة، أم صناعة الحضارة، فإنّ عليه استدامة الارتباط والصدور عن المبدإ التوحيديّ في كلّ حياته العمليّة والروحيّة، وأنّ مثل هذه الميزة المبنيّة على القيم الإسلاميّة هي التي تميّز الحضارة الإسلاميّة عن الحضارة المادّيّة.

هناك اختلاف بين الأعمال العسكريّة في الثقافة المادّيّة، وبينها في الثقافة الإسلاميّة، حيث إنّها لا تعني في المنظار المادّيّ سوى العنف، والقسوة، والطاعة العمياء، وأنّها أداة بيد الطامعين.. في حين أنّ العمليّات العسكريّة في المنظار الإسلاميّ تختلف عن ذلك تمام الاختلاف، حيث إنّها تجسيد للمفاهيم الإنسانيّة، ودفاع عن القيم الصالحة مصحوب بالوعي والمعرفة، وهذا الدفاع يعني حمل الأرواح على الأكفّ، وترويض النفس على التضحية والفداء، وأنّ هذا الدفاع يكون من أجل أسمى القيم الإنسانيّة والإلهيّة... لذا، يعدّ العمل العسكريّ في المنظار الإسلاميّ (جهادًا)، فإنّ الجهاد مأخوذ من بذل الجهد والسعي في سبيل القيم العليا، ومن هنا، جاء في الحديث: إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة[٣٣].

وما ذلك إلّا لأن الإسلام دين نهج الاقتدار هو دين التوحيد الكامل، ولو أردنا أن نتعرّف إلى القيم الإسلاميّة البانية لحضارته فما علينا إلّا أن نتعرّف للتحديدات التي تناولها الإمام الخامنئي فيما يخصّ القيم التوحيديّة، ومنها:

١. أنّ التوحيد يعني خلاص الإنسان من العبوديّة والطاعة لغير الله.
٢. وهو يعني تحطيم كلّ قيود النظام السلطويّ.
٣. كما يعني كسر سرّ الخوف من القوى الطاغوتيّة.
٤. والتوحيد يعني الاعتماد على الطاقات التي أودعها الله في الإنسان.
٥. وهو يعني أيضًا الاعتماد على الوعود الإلهيّة بانتصار المستضعفين.

---

(٣٣) الإمام الخامنئي، كلمته خلال اللقاء بقرّاء القرآن الكريم (طهران: ١ رمضان، ١٤٢٥هـ).

أمّا على مستوى القيم الفرديّة، فالتوحيد يعني:

١. التعلّق القلبيّ بالرحمة الإلهيّة وعدم الخوف من احتمال الهزيمة.

٢. مواجهة كلّ المصاعب والأخطار التي تهدّد الإنسان في طريقه لتحقيق الوعود الإلهيّة بصدر رحب.

٣. وتحمّل مشكلات الطريق في سبيل الله والأمل بالنصر النهائيّ.

٤. ويعني تركيز الأحداق على الهدف الساميّ، وهو خلاص المجتمع من كلّ ظلم وتفرقة أو جهل أو شرك.

٥. "أن لا يطلب المرء في كلّ ذلك إلّا الأجر الإلهيّ في قبال المصاعب الشخصيّة"[٣٤].

بمثل هذا الأفق المفتوح على عالم من قيم الاقتدار الإنسانيّ والحضاريّ، رسم الإمام الخامنئي تأثيرات التوحيد في حياة الإنسان الفرديّة والرساليّة العامّة. وعمل على أن يضخّ كلّ ذلك في وشائج المؤسّسات الخاصّة بالدولة والمجتمع، بحيث كانت هذه المعنويّة السارية في كلّ مفاصل البناء الرساليّ هي صمّام الأمان لحفظ الأمانة الإلهيّة، وهي الدافع نحو تحقيق الأهداف المتوخّاة والتي هدى الله سبحانه إليها. وأنّ كلّ قراءة لمسارات الحراك النهضويّ على مستوى الشعوب أو مسار الدولة الإسلاميّة في إيران الإسلام لا يستند إلى مثل هذه المبدئيّة، فإنّه بحقيقة الأمر مفارقة للواقع الصانع لوقائع هذه المسارات والتحوّلات والأحداث.

---

(٣٤) الإمام الخامنئي، الإسلام المحمّديّ، إعداد مهدي علاء الدين، الطبعة ١ (بيروت: دار الولاء، ٢٠٠٥)، الصفحة ٢١.

روح التوحيد
رفض عبوديّة غير اللّه

السيد علي حسيني خامنئي

مقدّمة المترجم

حين ارتفع نداء التوحيد في الجزيرة العربيّة على يد الرسول الخاتم، انقسم المجتمع المكّي إلى فئتين: فئة موحّدة، عبّأ الإسلام كلّ طموحاتها وغاياتها في مَثل أعلى واحد، هو الله سبحانه وتعالى. وفئة مشركة تتّجه آمالها وأهدافها نحو آلهة متعدّدة مزيّفة.

كلمة "لا إله إلا الله" كانت تنبئ بسقوط الأصنام القائمة في النفس الإنسانيّة الراسخة في أغلال البهيميّة، وسقوط كلّ الآلهة البشريّة والحجريّة القائمة على طريق المسيرة التاريخيّة.

من هنا، رافق دعوة التوحيد "صراع" و "حركة"؛ صراع بين الأحرار الذين وضع الإسلام عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، والعبيد ممّن أخلد إلى الأرض واتّبع هواه. وحركة دائبة تكامليّة نحو إنشاء المجتمع الإنسانيّ الموحّد المتّجه في أفكاره وعواطفه وسلوكه نحو الله.

هذه الحركة التاريخيّة على طريق النبوّة استمرّت زمنًا، فسجّلت في التاريخ أروع صور الإنسانيّة المتسامية على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ، لكنّها ما لبثت طويلًا حتّى بدأت تتعثّر في مشيها نتيجة ظهور عوامل سلبيّة حاولت أن تحرف المجتمع الإسلاميّ عن طريق الله.

تفاقمت العوامل السلبيّة على طريق المسيرة، حتّى أدّى الأمر إلى ظهور آلهة متعدّدة بين المسلمين يحكمون بينهم بغير ما أنزل الله، وينصّبون من أنفسهم قيّمين على البشرية مكان الدين القيّم. كما أدّى الأمر إلى أن تعصف الأهواء في المسلمين، وتفرّقهم عن سبيل الله، وتسلبهم دورهم القياديّ التاريخيّ على الساحة البشريّة. وهذا أدّى إلى ما نشاهده اليوم في العالم من تيه، وصراع دمويّ مسعور، يكاد يحرق الأخضر واليابس.

وهكذا، فَقَد دين التوحيد دوره في قيادة البشريّة، بل في قيادة المسلمين، بعد أن تخلّى المسلمون عن تنفيذ هذا الدور.

ومن هنا، نجد أنّ نداء "لا إله إلّا الله" يرتفع مرّات يوميًا من المآذن في حواضر المسلمين، فلا يحدث في الأمّة هزّة تدفعها لتحطيم الأصنام القائمة بين ظهرانيها ولا يحرّكها على طريق حمل الأمانة الكبرى.

يطرق نداء التوحيد أسماع الآلهة المزيّفة في العالم الإسلاميّ كلّ يوم، فلا يستثيرها ولا يهدّد مصالحها، ولا يبعث الرعب في نفوسها لأنّها تعلم أنّه يخرج من الحنجرة لا من القلب، وينبعث من نفس هامدة راكدة، لا من نفس ملتهبة متفاعلة مع مفهوم هذا النداء، فلا يمكن أن تستمرّ الجاهليّة الحديثة المهيمنة على عالمنا اليوم.

يؤكّد الوعد الإلهيّ في إمامة المستضعفين للأرض ذلك، إضافةً إلى أنّ الأرقام المادّيّة تجزم بعدم إمكان استمرار الأوضاع القائمة.

والظواهر التي تتجلّى في أفق الأحداث العالميّة، تنبئ بقرب تحقّق الوعد الإلهيّ، وأبرز هذه الظواهر "ثورة إيران الإسلاميّة"، التي قطعت مرحلة هامّة في انتصارها، ولا زالت تواصل طريقها بسرعة مدهشة – والحمد لله وله المنّة – على كلّ جبهات الصراع مع قوى الاستكبار والجاهليّة.

تشكّل هذه الظاهرة بداية عودة حقيقيّة إلى طريق الله على صعيد الأفكار والعواطف والحركة. وهذا المقال الذي بين يدي القارئ، نموذج جيّد لهذه العودة على الصعيد الفكريّ.

إنّه يعالج مسألة التوحيد، لكنّه لا يتناولها على شكل فلسفة عقليّة محضة باردة كما كانت تطرح في كتب عصور الجمود والخمود. ولا يطرحها على شكل حواشٍ على شروح، وشروح على حواشٍ في إطار جُدران المدارس العلميّة، بل يعالج المسألة باعتبارها تصوّرًا حركيًّا، وأساسًا لعمليّة الهدم والبناء في المجتمع الإنسانيّ. يطرحها كما طرحها الإسلام في فجره الأوّل، وكما طرحتها كلّ الرسالات الإلهيّة في التاريخ.

هذا المقال يبحث جانبًا من الثقافة الإسلاميّة الجديدة التي رافقت التحرّك الإسلاميّ الجديد في إيران. إنّها ثقافة تنبض بالحياة والحركة،

وتعيش في القلوب والعقول، وتحوّل نداء "الله أكبر" و "لا إله إلّا الله" إلى حمم وصواعق على رؤوس الطواغيت والمستكبرين، وتستنهض الهِمَم والعزائم، وتفجّر الطاقات، وتدفع أبناء الأُمّة إلى الثورة على كلّ الأصنام التي تقف على طريق استلام دورهم الرساليّ، وحركتهم التاريخيّة.

في الخاتمة، لا بدّ أن أعترف بقصور هذه الترجمة العربيّة عن بلوغ المستوى الأدبيّ الرفيع للنصّ الفارسيّ. فالكاتب وهبه الله فصاحة، أين منها فصاحة سحبان وائل! وطريقته في التعبير والخطاب مستوحاة من كتاب الله العزيز. يخاطب – حين يكتب ويتحدّث – القلوبَ والعقول، ويستثير الأفكار والمشاعر. والترجمة عادةً – أو قُل هذه الترجمة على الأقلّ – لا تستطيع أن ترتفع إلى مستوى فصاحة النصّ الأصليّ.

نسأله سبحانه أن يوفّقنا لنقل "الكلمة" التي ضحّى آلاف الشهداء في سبيلها إلى أبناء أمّتنا الإسلاميّة، آملين أن تتوحّد جميع الخُطى على صراط الله المستقيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

يوم نهض نبيّ الإسلام لحمل رسالة تحرير الإنسان، وأعلن شعار "لا إله إلّا الله"، واجه معارضة حادّة ومقاومة عنيفة. وكان في مقدّمة هذه الجبهة المضادّة رؤساء القبائل ووجهاؤها. وكان بقيّة المعارضين تابعين ومطيعين لهؤلاء السادة والكبراء.

في البداية، واجه هؤلاء الرسول والفئة المؤمنة بأبسط الأسلحة العدوانيّة: الهمز واللّمز والاستهزاء. ثمّ عمدوا إلى أسلحة أشدّ وأفتك كلّما ازدادت الحركة التوحيديّة قوّة وبلورة. وهكذا كرّرت هذه الجبهة المضادّة خلال الأعوام الثلاثة عشر قبل الهجرة تلك المشاهد المخزية في تاريخ الصراع بين الحقّ والباطل.

هذه الحقيقة التاريخيّة تستحقّ مزيدًا من الدقّة والإمعان، لأنّها تشكّل مؤشّرًا هامًّا للتعمّق في فهم الإسلام، وفي فهم التوحيد الذي يشكّل العمود الفقريّ للإسلام.

إنّه لمؤسف جدًّا، بل إنّها لمأساة لكلّ دعاة تحرير الإنسان أن نشهد انحراف مفهوم التوحيد في عصرنا. فهذا المفهوم يشكّل أعمق أسس محتوى الأديان، ولا يناظره مفهوم آخر في عمق اتّجاهه نحو تحرير الإنسان وإنقاذ البشريّة المعذّبة على مسرح التاريخ.

وقد عملت الرسالات الإلهيّة عامّة خلال التاريخ، على ما نعلم، على تغيير المجتمع، ودفعه في اتّجاه يخدم مصالح الإنسان وينقذ المستضعفين والمسحوقين، ويقضي على كلّ مظاهر الظلم والتمييز والعدوان. فالمحتوى الأخلاقيّ لكلّ الأديان الكبرى – كما يقول أريش فروم – يتكوّن من التطلّع نحو العلم، والحبّ الأخويّ، والتخفيف من الآلام، والاستقلال، والشعور بالمسؤوليّة. وهناك طبعًا تطلّعات سامية شريفة أخرى لا نتوقّع من باحث ماديٍّ أن يدركها.

كلّ هذه التطلّعات والآمال تتلخّص في مبدأ التوحيد. والأنبياء كانوا يطرحون كلّ أهدافهم من خلال شعار التوحيد، كما كانوا يحقّقون تلك

الأهداف أو يمهّدون لتحقيقها في أعقاب كفاح ينشب تحت راية هذا الشعار.

وإنه لمؤسف حقًّا لا للموحّدين فحسب، بل لكلّ المتبنّين لهذه الآمال والأحداث، أن يبقى محتوى التوحيد مجهولًا أو محرّفًا أو سطحيًّا لا يتجاوز الإطار الذهنيّ، خاصّة في عصر تتصاعد فيه ضرورة الاتّجاه نحو تلك الأهداف أكثر من أي وقت مضى.

ذكرنا أنّ المجابهات التي شهدها عصر فجر الإسلام تستطيع أن توضّح حقيقة هامّة بشأن مفهوم التوحيد. هذه الحقيقة هي: إنّ شعار "لا إله إلّا الله" اتّجه أوّلًا لمقارعة أولئك الذين حاربوه وعادوه، وهم أفراد الطبقة المسيطرة المقتدرة في المجتمع.

كما أنّ ردّة الفعل التي يبديه خصوم كلّ حركة في المجتمع تعبّر دومًا بوضوح عن الاتّجاهات الاجتماعيّة لتلك الحركة، ومدى عمق تأثير هذه الاتّجاهات. ويمكن فهم الاتّجاه الطبقيّ والاجتماعيّ للحركة من خلال دراسة طبيعة أعدائها وانتماءاتهم الطبقيّة، وقياس عمق تأثيرها عن طريق فهم مدى تصلّب الأعداء تجاهها.

من هنا، فإنّ دراسة جبهة أتباع الدعوات الإلهيّة وجبهة أعدائها، واحدة من الطرق الموثوقة في فهم هذه الدعوات بشكل صحيح. فحين نشاهد أنّ الفئات المقتدرة كانت دومًا سبّاقة في محاربة الرسالات الإلهيّة، نفهم بوضوح أنّ هذه الرسالات تعارض بطبيعتها هذه الفئات، تعارض تجبّرها وترفها، بل تعارض أساسًا هذه الطبقيّة التي جعلت هذه الفئات متميّزة عن غيرها.

وقبل أن ندرس التوحيد من هذا المنظار؛ منظار مقارعته لكلّ ألوان السيطرة الاجتماعيّة، لا بدّ من الإشارة أوّلًا إلى أنّ التوحيد لا ينحصر في إطار نظرة فلسفيّة ذهنيّة كما هو شائع، بل هو نظريّة أساسيّة حول الإنسان والعالم، ومنهج اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ للحياة.

ويندر أن نجد في قواميس الألفاظ الدينيّة وغير الدينيّة لفظة مثل لفظة

التوحيد في استيعابها للمفاهيم الثوريّة البنّاءة، ولأبعاد الحياة الاجتماعيّة والتاريخيّة للإنسان. فلم يكن من الصدفة أن تبدأ كلّ الدعوات والحركات الإلهيّة في التاريخ بإعلان توحيد الله وحصر الربوبيّة والألوهيّة به.

أمّا أبعاد محتوى التوحيد، فنلخّصها فيما يلي:

أ- التوحيد على صعيد التصوّر (النظرة العامّة للكون والحياة)

ما يعني وحدة جميع العالم وانسجامه وائتلاف أجزائه وعناصره، من أنّ مبدأ الخلقة واحد، وجميع المخلوقات من ذلك المبدأ الواحد، وليس هناك آلهة متعدّدة في خلق العالم وإدارته، وهذا يستتبع وحدة جميع أجزاء العالم في التكوين والاتّجاه.

يقول الله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٢]، ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[٣].

إنّ العالم المتحرّك – انطلاقًا من هذا التصوّر – قافلة متّصلة الأجزاء، كاتّصال حلقات السلسلة الواحدة، وكارتباط أجزاء الجهاز الواحد العاملة في اتّجاه واحد. وكلّ جزء من هذه الأجزاء، يكتسب معناه الواقعيّ ويتّضح واجبه من خلال فهم مكانته في مجموع هذا التركيب. كلّ الأجزاء، يعاون بعضها الآخر ويكمّل بعضها الآخر في هذا السير التكامليّ الحثيث، وكلّ واحد منها آلة ضروريّة في هذه المجموعة. وكلّ توقّف وفساد وركود وانحراف في أيّ جزء من هذه الأجزاء يؤدّي إلى بطء وفساد وانحراف في جميع الجهاز. وبهذا الشكل، ترتبط جميع الذرّات مع بعضها برباطٍ معنويٍّ عميق.

وهذا يعني أنّ للعالم هدفًا يقوم على أساس حساب وانضباط دقيق،

---

(٢) سورة الملك، الآية ٣.

(٣) سورة الروم، الآية ٨.

وأنّ لكلّ واحد من الأجزاء روحًا ومعنى؛ فالعالم له خالق حكيم. وبناءً على هذا، فإنّ لأصل الوجود كما لكثير من أجزائه، حكمة وغاية واتّجاه وهدف، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[٤].

والعالم بمجموعه، انطلاقًا من هذا التصوّر، ليس بالحائر العابث، بل هو مثل ماكينة مصنوعة ومرصودة للعمل من أجل هدف معيّن. فيمكن السؤال عن هدفه، ولا يمكن السؤال عن أصل هذا الهدف. إنّه قصيدة ذات مضمون ينبغي التأمّل والتدبّر فيها لفهم مضمونها، ولا يمكن إطلاقًا اعتبارها صوتًا منطلقًا من حركة عشوائيّة. بل أبعد من ذلك، يمكن اعتبار خضوع كلّ عناصر العالم وكلّ الأشياء لله.

فلا يوجد بين هذه المجموعة عنصر شاذّ متمرّد؛ كلّ قوانين الطبيعة وكلّ ما يخضع لسيطرة هذه القوانين منصاع لله وعبد له. فوجود القوانين التكوينيّة والطبيعيّة على ساحة الكون لا يعني نفي ربوبيّة الله ومبدئيّته. يقول الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٥]، ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[٦]، وأيضًا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧].

ب- التوحيد على صعيد فهم الإنسان

ما يعني وحدة أبناء البشر وتساويهم في ارتباطهم بالله. إنه ربّ جميع الناس. وليس لأحدٍ – بسبب طبيعته الإنسانيّة – علاقة خاصّة متميّزة به. ولا لأحدٍ معه قرابة. ليس إله شعب خاصّ أو قبيلة معيّنة، ولم يختر شعبًا معيّنًا ليكون ذلك الشعب سيّدًا والباقي عبيد. كلّ الناس أمام الله سواسية، وليس لأحدٍ عند الله كرامة خاصّة إلّا بالعمل الصالح، أي بالسعي والمثابرة

---

(٤) سورة الأنبياء، الآية ١٦.

(٥) سورة مريم، الآية ٩٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ١١٦.

(٧) سورة الزمر، الآية ٦٧.

على طريق خدمة الناس والعمل بأحكام الله المؤدّية إلى سمّو الإنسان.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[8]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[9]، كذا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[10].

ويعني أيضًا وحدة أبناء البشر وتساويهم في الخلقة والتكوين الإنسانيّ. فالإنسانيّة عنصر واحد يسري في جميع أفراد النوع البشريّ، بشكل متساوٍ، ليس هناك آلهة متعدّدة خلقت فئات بشريّة متعدّدة. ولذلك، فلا توجد ثمّة اختلافات وفواصل منيعة في الخلقة، كما إنّ إله الطبقة الاجتماعيّة العليا ليس بأقوى من إله الطبقة الاجتماعيّة السفلى. كلّ الناس مخلوقات الإله الواحد الأحد، وكلّهم متشابهون في جوهر خلقتهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[11].

كما يعني تساوي أبناء البشر في الإمكانات المتاحة لهم من أجل السموّ والتكامل. فالبشر متشابهون في جوهرهم الإنسانيّ وطبيعتهم الإنسانيّة، وهذه الطبيعة الإنسانيّة جُبلت بيد بارئ حكيم. فليس هناك إذن عاجز ذاتيًّا عن ارتقاء مدارج الصراط المستقيم نحو السموّ والتكامل. من هنا، فدعوة الله دعوة عامّة، لا تختصّ بشعب معيّن أو فئة خاصّة. والظروف المختلفة لها آثارها المختلفة على الإنسان، لكنّ هذه الظروف الطارئة لم تستطع أن تصنع من الإنسان بشكل دائم شيطانًا أو مَلَكًا وتغلّ يديه وتسلب اختياره وتسدّ الطريق أمام انتخابه وتغيّره.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[12]، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ

---

(8) سورة البقرة، الآية ١١٦.

(9) سورة الأنبياء، الآية ٩٤.

(10) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(11) سورة النساء، الآية ١.

(12) سورة سبأ، الآية ٢٨.

رَسُولًا ﴾[١٣]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾[١٤].

ويعني أيضًا **حرّيّة جميع الناس من قيود الأسر**، ومن قيود العبوديّة لغير الله، وهو تعبير آخر عن ضرورة العبوديّة لله. فأفراد البشر الراضخون بشكلٍ من الأشكال تحت سيطرة غير الله كالسيطرة الفكريّة والثقافيّة، أو الاقتصاديّة، أو السياسيّة؛ وهم مستعبدون لعباد من أمثالهم بالمفهوم الواسع للعبادة. هؤلاء قد اتّخذوا لله أندادًا. والتوحيد يرفض هذا الشكل من الحياة، ويعتبر الإنسان عبدًا لله فقط، ويحرّره من العبوديّة والرضوخ لكلّ نظام، بل لكلّ عامل مسيطر يضع نفسه مكان الله.

فالتوحيد **يعني التسليم لله وحده**، ويستتبع ذلك رفضَ كلّ سلطة غير سلطة الله مهما كان شكلها ونوعها؛ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[١٥]، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[١٦].

والتوحيد بالمعنى المتقدّم يعني **تكريم الإنسان وتثمينه**. فالعنصر الإنسانيّ السامي أعظم من أن يخضع ويرضخ لأحد غير الله. والوجود المطلق والجمال المطلق هو وحده الذي يستحقّ عبادةَ الإنسان وثناءه وعشقه. وهذا النزوع المتسامي هو درجة من درجات السموّ.

فلا شيء – غير ذات الله تعالى – يتمتّع بمنزلة يستحقّ فيها عبادة الإنسان ودعاءه. كلّ الأصنام الجامدة والمتحرّكة التي فرضت نفسها على فكر الإنسان وقلبه وجسمه، واغتصبت حاكميّة الله في حياة الإنسان هي رجس وأوثان تُبعد الكائن البشريّ عن طُهره ونقائه الفطريّ، وتذلّه وتصدّه

(١٣) سورة النساء، الآية ٧٩.

(١٤) سورة النساء، الآيتان ١٧٤ و١٧٥.

(١٥) سورة يوسف، الآية ٤٠.

(١٦) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

عن حركته. ولا بدَّ للإنسان – إنْ أراد استعادة مكانته السامية – أن يجتنب هذه الأوثان ويغسل عن وجوده عار التلوّث بعبوديّتها؛ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاء لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[17]، و﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾[18]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[19].

وهو كذلك يعني **وحدة وانسجام حياة الإنسان ووجوده**؛ فهي مركّبة من الذهن والواقع، من الفكر والعمل. وإذا خضع واحد من هذين الجانبين، بأجمعه أو بقسم منه، لأعداء الله، أي إذا أصبح الذهن إلهيًّا والواقع غير إلهيّ، أو أصبح الواقع إلهيًّا والذهن بعيدًا عن الله، حينئذٍ تظهر الازدواجيّة في حياة الإنسان، ويبرز الشرك في عبودية الله.

يكون الإنسان في مثل هذه الحالة مؤشّر مغناطيسيّ ظهر في مجاله المغناطيسيّ عنصر غريب. المؤشر عندئذٍ إمّا أن ينحرف عن اتجاهه الطبيعيّ انحرافًا تامًّا، أو يبقى يتأرجح يَمنةً ويسرة، أي سوف ينحرف الإنسان عن الصراط المستقيم المتناسب مع طبيعته الإنسانيّة، وبالتالي، ينحرف عن الله؛ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[20].

ويعني أيضًا **انسجام الإنسان مع العالم المحيط به**. فالساحة الكونيّة الفسيحة تزخر بقوانين الخليقة، ولا تغرب أدنى ظاهرة طبيعيّة عن إطار هذه القوانين. وبانسجام هذه القوانين وتعاضدها والتقائها ينتظم شكل الكون ويسود في العالم هذا النظام الرائع المشهود. فالإنسان جزء من هذه

---

(١٧) سورة الحجّ، الآيتان ٣٠ و ٣١.

(١٨) سورة الإسراء، الآية ٢٢.

(١٩) سورة الإسراء، الآية ٣٩.

(٢٠) سورة البقرة، الآية ٨٥.

المجموعة وتتحكّم فيه قوانينها العامّة، إضافةً إلى قوانين خاصّة. غير أنّ هذه القوانين الخاصّة متناسبة ومنسجمة أيضًا مع قوانين الظواهر الأخرى.

أمّا الإنسان، خلافًا لسائر الظواهر الأخرى المسخّرة للحركة على طريقها الطبيعيّ الفطريّ، يتمتّع بقوّة إرادة وقدرة اختيار. وعليه أن يطوي طريقه الفطريّ الطبيعيّ عن اختيار، لأنّه طريق سموّه وكماله. وهذا يعني أنّه قادر على الانحراف عن هذا الطريق الطبيعيّ: ﴿فَمَنْ شَاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[21].

والتوحيد يدعو الإنسان إلى السير على طريقه الطبيعيّ الفطريّ المنسجم مع كلّ الكون، وبذلك يربط الكائن البشريّ - باعتباره عضوًا أصليًّا من أعضاء هذا الكون - في عمله وسعيه بسائر أجزاء الكون، ويخلق بذلك وحدةً وانسجامًا تامّين: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[22]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[23].

ج- التوحيد على صعيد المناهج الاجتماعيّة (الاقتصاديّة والسياسيّة وغيرها)

يسلب من كلّ مصدر غير الله صلاحيّة الانفراد بوضع مناهج مستقلّة لشؤون الحياة والإنسان.

فالله خالق الإنسان والكون والمصمّم لهذا النظام الكونيّ المنسجم، والعالم بإمكانات الإنسان واحتياجاته. وهو تعالى يعلم ما ينطوي عليه الكائن البشريّ من ذخائر دفينة وطاقات مكنوزة، وما ينطوي عليه الكون من

(21) سورة الكهف، الآية 29.

(22) سورة آل عمران، الآية 83.

(23) سورة الحجّ، الآية 18.

كنوز وإمكانات، ويعلم ميزان وأبعاد استثمار هذه الكنوز والإمكانات، ويعلم كيف تلتقي هذه جميعًا مع بعضها.

من هنا، فهو وحده القادر على وضع منهج لطريقة الحياة، ولعلاقات الإنسان، ومنهج حركته في إطار نظام التكوين. وهو وحده القادر على وضع قوانين الحياة وتعيين شكل النظام الاجتماعيّ. فاختصاص هذا الأمر بالله نتيجة طبيعيّة ومنطقيّة للخالقيّة والألوهيّة. فكلّ تدخّل من الآخرين – إذن – لتعيين المسيرة العمليّة للبشريّة هو تدخّل في حاكميّة اللهِ وادّعاء للألوهيّة وباعث على الشرك؛ ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[24]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا﴾[25].

ويسلب حقّ الولاية على المجتمع وحياة الإنسان منْ غير الله. فولاية الإنسان على الإنسان، لو قامت على أساس حقّ مستقلّ وبدون مسؤوليّة، لاستلزمت الظلم والطغيان والعدوان. لأنّ الفرد الحاكم والجهاز الحاكم لا يستطيع أن يتخلّص من الانحراف والطغيان والإفراط إلّا إذا كانت زمام الأمور معطاة بيد هذا الفرد أو هذا الجهاز من قبل سلطة عُليا ضمن إطار مسؤوليّات متناسبة. وهذه السلطة العُليا في المدرسة الدينيّة هي الله المحيط بكلّ شيء علمًا؛ ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾[26]، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[27].

هذه السلطة العُليا لا تنطلي عليها خدعة كما قد تنطلي على الجماهير، ولا يمكن اتّخاذها وسيلة للسيطرة والتجبّر كما تُتّخذ الأحزاب، ولا يمكن

---

(٢٤) سورة النساء، الآية ٦٥.

(٢٥) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٢٦) سورة سبأ، الآية ٣.

(٢٧) سورة الحاقّة، الآيات ٤٤ – ٤٦.

المساومة معها كما يمكن مع عليّة القوم وزعمائهم.

وبنظرة أعمق: لو استلزم نَظم الحياة انتهاء كلّ أجهزة الحياة الاجتماعيّة بنقطة واحدة، وتفرّد قوّة مسيطرة بمسك زمام جميع الأمور، لما كانت تلك القوّة المسيطرة سوى خالق الكون والإنسان.

فالحكم حقّ خاصّ بالله، ينفّذه من عيّنهم الله، أي أولئك الذي تتجسّد فيهم أكثر من غيرهم تلك المعايير والخصال المحدّدة في الأيديولوجيا الإلهيّة. وهؤلاء منفّذون وحفَظَة للقوانين الإلهيّة؛ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢٨]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢٩]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾[٣٠].

ويعني اختصاص الملكيّة المطلقة الأصليّة لكلّ نعَم الكون وذخائره بالله. فليس لأحدٍ أن يملك ويتصرّف مباشرة ومستقلًّا. كلّ شيء أمانة بيد الإنسان لاستثماره والاستعانة به على طريق السموّ والتكامل. ليس للإنسان المنعّم أن يفسد ويتلف نِعَم هذا العالم التي هي ثمرة سعي آلاف الظواهر والعناصر في هذا العالم، أو أن يهمل هذه النِعَم أو يستثمرها في طريق غير طريق السموّ الإنسانيّ. ما في يد الإنسان، وإن كان ملكًا له، فهو عطاء إلهيّ. من هنا، ينبغي أن يتّجه استثمار هذا العطاء على الطريق الذي عيّنه الله، أي في طريقه الطبيعيّ الأساسيّ، في الطريق الذي خُلق من أجله في الحقيقة. واستثمار هذا العطاء الإلهيّ في غير هذا الطريق انحراف عن اتّجاهه الطبيعيّ، إنّه الفساد.

كما أنّ دور الإنسان إزاء هذه النعم الإلهيّة المتنوّعة هو استثمارها بشكل صحيح، وفتح مغاليق كنوزها، وقبل ذلك إحياؤها والبلوغ بها إلى درجة

---

(٢٨) سورة الأنعام، الآية ١٤.

(٢٩) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٣٠) سورة الناس، آية ١ - ٣.

الكمال طبعًا؛ ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[٣١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٣٢]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٣٣]، ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾[٣٤].

كما يعني أنّ أفراد البشر متساوون في حقّ استثمار نعَم الحياة. فالإمكانات والفرص متكافئة أمام جميع البشر ليستثمر كلّ منهم هذه النِعَم قدَرَ حاجاته وضمن إطار سعيه وعمله. هذه الساحة الكونيّة لا توجد فيها منطقة خصوصيّة محصورة بفئة معيّنة. والجميع يستطيعون أن يستثمروا نعم الحياة المتنوّعة قدَر همّتهم وإرادتهم، دون تمايز بينهم في العنصر أو الموقع الجغرافيّ والتاريخيّ، بل وحتّى في الانتماء الأيديولوجيّ؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ﴾، ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾، ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾.

وكلّ هذه الآيات من مطلع سورة **النحل** تخاطب جميع البشر دون أن تتّجه في خطابها إلى فئة خاصّة أو طائفة خاصّة، وهي جاءت في سياق آيات أخرى تخاطب جميع البشر أيضًا مثل: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

هذا جانب من المحتوى العميق الواسع للتوحيد. ومن خلال هذا الاستعراض السريع، يتّضح بجلاء أنّ التوحيد ليس بالنظريّة الفلسفيّة

---

(٣١) سورة المؤمنون، الآيتان ٨٤ و ٨٥.

(٣٢) سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٣٣) سورة هود، الآية ٦١.

(٣٤) سورة الرعد، الآية ٢٥.

الذهنيّة غير العمليّة المعزولة عن الحياة وعمّا يرتبط بحركة المجموعات البشريّة وبحركة الفرد ونشاطه. فالتوحيد لا يكتفي باستبدال معتقد بمعتقد آخر. بل إنّه:

من جهة، نظرة عامّة للكون والحياة تشتمل على مفهوم خاصّ للعالم وللإنسان ولمكانة الإنسان بين ظواهر العالم ومكانته في التاريخ، ولإمكاناته واحتياجاته ومتطلّباته الذاتيّة، ولاتّجاهه ومراحل سموّه وكماله.

ومن جهة أخرى، منهج اجتماعيّ شامل متناسب مع طبيعة الإنسان، ويستطيع الكائن البشريّ في إطاره أن يسمو على مدارج كماله بسهولة وسرعة. إنّه أطروحة خاصّة للمجتمع تتّضح فيها الخطوط العامّة والأساسيّة للكيان الاجتماعيّ.

من هنا، حين يرتفع نداء التوحيد في المجتمعات الجاهليّة؛ المجتمعات القائمة على أساس الجهل بحقيقة الإنسان، والمجتمعات الطاغوتيّة القائمة على أساس المعاداة للقيم الإنسانيّة الحقّة، فإنّه يحدث تغييرًا شاملًا ينير القلوب المظلمة ويحيي النفوس الهامدة، ويبعث هزّة في جسد المجتمع الراكد، وينظّم الشؤون المبعثرة المتناقضة لذلك المجتمع. يحدث التوحيد تغييرًا في المحتوى النفسيّ، والمؤسّسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وفي القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة. وبعبارة قصيرة، يهاجم التوحيد الوضع الجاهليّ القائم والسلطة التي تحمي هذا الوضع، والجوّ الذي يغذّي هذا الوضع ويمدّه بالحياة.

التوحيد – إذن – ليس فقط أُطروحة ترتبط بمسألة نظريّة محضة أو مسألة ذات إطار عمليّ محدود، بل إنّه أيضًا طريق جديد أمام الإنسان، يستهدف تقديم أسلوب آخر للعمل والحياة، وإن استند إلى تحليل ذهنيّ ونظريّ.

انطلاقًا من هذا الفهم لمحتوى التوحيد، نعتقد أنّ هذا الأصل يشكّل حجر البناء في صرح الدين، ومحتواه الأساس، والقاعدة التي تقوم عليها.

لأنّ فهم التوحيد على أنّه نظرة لما وراء الطبيعة أو أنّه على أحسن الأحوال أطروحة أخلاقيّة عرفانيّة، لا يتناسب إطلاقًا مع الأيديولوجيا الإسلاميّة الحيّة التي تنطوي على أطروحة كاملة للحياة الاجتماعيّة.

كان هناك على مرّ التاريخ طبعًا أفراد، مع إيمانهم بالله وبالتوحيد، غفلوا أو تغافلوا عن المحتوى العينيّ والعمليّ – وخاصّة الاجتماعيّ – لهذه العقيدة. هؤلاء وطّنوا أنفسهم على المعيشة في كلّ زمان ومع كلّ الظروف بحيث لا تكاد تميّزهم عن الكافر بالتوحيد. أي إنّ هذه العقيدة لم تبعث فيهم شعور التعارض مع الوضع غير التوحيديّ القائم، ولم يثقل كاهلهم عبء الشرك المستفحل في مجتمعهم.

في مطلع الإسلام، كان هناك مجموعة من الحنفاء يعيشون في مكّة، مركز الوثنيّة وعاصمة أصنام العرب الكبرى. لكنّ وجودهم لم يكن له أدنى تأثير على الجوّ الفكريّ والاجتماعيّ، لأنّ مفهوم هؤلاء الحنفاء عن التوحيد لم يتعدَّ أذهانهم وقلوبهم وإطار حياتهم الخاصّة، ولم يكن له أدنى تواجد في تلك المتاهات الجاهليّة، ولا أقلّ تأثير على الحياة المؤسفة القائمة هناك. هؤلاء الذين يسمّون بالموحّدين كانوا يعيشون مع غيرهم في ساحة واحدة ويطوون مسيرة تلك الحياة بنفس طريقة غيرهم دون أن يزعجهم شيء. هذا الفهم الذهنيّ للتوحيد يتميّز بهذه الصفة من الخمول والانعزال عن الحياة وخاصّة الحياة الاجتماعيّة.

في مثل هذه الأجواء، أعلن الإسلام مفهوم التوحيد باعتباره عقيدة ملتزمة وتنظيمًا للحياة وأطروحة جديدة للمجتمع. وبهذا الشكل، أعلن هويّته باعتبار دعوته انقلابيّة لكلّ مخاطبيه، المؤمنين منهم والكافرين. فكلّ مَن سمع نداء الإسلام علِم أنّه نظام اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ جديد لا يتلاءم إطلاقًا مع الأوضاع التي كانت قائمة في العالم آنذاك، بل إنّه يستهدف إزالة الوضع القائم وإبداله بوضع آخر.

بسبب هذه الأطروحة، اندفع المؤمنون صوب الدعوة باشتياق ولهفة

وولع شديد وأسلموا لها. ولهذا السبب أيضًا، هبّ المعارضون والكافرون ليقاوموا نداء التوحيد بوحشيّة وضراوة، وليصعّدوا عداءهم يومًا بعد يوم.

هذه الحقيقة التاريخيّة، بمقدورها أن تكون معيارًا لتقييم صحّة أو عدم صحّة ادّعاء التوحيد في كلّ زمان ومكان. ومن الصعب أن نصدّق وجود التوحيد في نفوس قوم يشبهون موحّدي مكّة قبل ظهور الإسلام.

فالتوحيد المهادن مع كلّ الأنداد والآلهة المزيّفة، الذي لا يعدو أن يكون فرضيّة ذهنيّة، ليس إلّا نسخة ممسوخة لتوحيد الأنبياء، ومن الطبيعيّ أن يخلو مثل هذا التوحيد من ديناميكيّة دعوة الأنبياء.

فمن خلال هذه الرؤية، نستطيع أن نفهم سبب انتشار نور الإسلام وتقدّمه في العصور المتقدّمة، وسبب تراجعه وتقهقره وضعفه في العصور المتأخّرة.

فإسلام رسول الله (ص) كان يضع التوحيد أمام الناس باعتباره طريقًا ومسلكًا. وإسلام العصور التالية طرح التوحيد باعتباره نظريّة يدور حولها البحث والجدل في المجالس والمحافل. الكلام في الأوّل يدور حول تصوّر جديد للعالم ونظريّة جديدة لحركة الحياة، أمّا في الثاني، فيدور حول مسائل كلاميّة فرعيّة خالية من كلّ عطاء حيّ.

كان التوحيد يشكّل الهيكل العظميّ للنظام القائم، والمحور لكلّ العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، بينما في العصر التالي، فيتمثّل في لوحة فنيّة جميلة معلّقة في صالة؛ الهدف منها إكمال مظاهر الزينة فيها، فأيّ دور فعّال يمكن أن نتوقّعه من مثل هذه الظاهرة الكماليّة؟

ممّا تقدّم، يتّضح أنّ التوحيد من منظار عمليّ أطروحة للمجتمع ومنهج للحياة وقاعدة للنظام الذي اعتبره الإسلام متناسبًا مع طبيعة الإنسان ونموّه وسموّه. وهو من منظار نظريّ يشكّل القاعدة الفكريّة الفلسفيّة لذلك النظام.

بعد هذه التمهيدات، نستطيع أن نعود إلى بداية المقال، وندرس المسألة

من الزاوية الخاصّة التي استهدفناها فيه.

قلنا: إنّ المجابهات الأولى التي واجهها نداء التوحيد انطلقت من ذوي القدرة والسلطة في المجتمع، وهذا مؤشّر يُثبت أنّ الضربة التي وجّهها هذا الشعار اتّجهت أوّل وأكثر ما اتّجهت نحو تلك الفئة المقتدرة المسلّطة، أو نحو الفئة المستكبرة على حدّ التعبير القرآنيّ.

وقلنا أيضًا: إنّ الدعوات التوحيديّة في مختلف عصور التاريخ، ما إن انطلقت في المجتمع حتّى اتّخذت موقفها الواضح من المستكبرين. وعلى أثر هذا الموقف، انقسم المجتمع إلى فئتين متناقضتين: الفئة المعارضة المستكبرة، والفئة المؤمنة المستضعفة.

وأخيرًا، إنّ ردّ الفعل الذي تبديه هاتان الفئتان تجاه رسالة التوحيد هي الخاصّة التي تميّز التوحيد الحقيقيّ الأصيل. أي إنّ التوحيد – متى ما أُعلن بمفهومه الأصيل وبشكله الصحيح – يواجه هذه المجابهات وردود الفعل الاجتماعيّة.

والآن علينا أن نتفحّص أبعاد التوحيد لنرى أيّ بُعد من هذه الأبعاد يتعارض مباشرة مع مصالح الطبقة المستكبرة ويصطدم مع وجودها. بعبارة أخرى، علينا أن نفهم تلك النظرة التوحيديّة التي تستثير المستكبرين وتدفعهم إلى اتّخاذ موقف المجابهة الحادّة. إذ إنّ تفهّمُ شخصيّة المستكبر في **القرآن الكريم** تعيننا كثيرًا على فهم هذا الموضوع.

يعطي **القرآن الكريم** في أكثر من أربعين موضعًا صورة عن المستكبر وخصائصه النفسيّة ومكانته الاجتماعيّة وأهدافه وأطماعه التوسعيّة الاستئثاريّة. وبشكل عام، يحدّد للمستكبر الخصائص التالية:

يرفض الله بالمفهوم الذي تعبّر عنه عبارة: "لا إله إلا الله" (أي حصر الحاكميّة والمالكيّة المطلقة به تعالى)، وإن لم يرفض الله كحقيقة ذهنيّة تشريفاتيّة محدودة الإطار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ

يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٣٥]، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[٣٦]، ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٣٧].

ويتّخذ موقف الجاحد والمكذّب تجاه دعوة النبيّ التغييريّة التحرّريّة، ويجابهها بحجّة أنّه أقدر من غيره على فهم الطريق الصحيح، وبحجّة أنّ الله ينبغي أن يخاطبه مباشرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾[٣٨]، ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾[٣٩].

كما ويتّهم المستكبرون صاحب الدعوة بأنّه يستهدف الحصول على الجاه والمنزلة، كما يتذرّعون بالتقاليد البالية السائدة لنظامهم المسيطر للحدّ من انتشار الدعوة في المجتمع؛ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٤٠].

ويستعينون بالقوّة والتزوير وبمختلف سبل الخداع والتضليل لإبقاء الناس تحت سيطرتهم وعبوديّتهم، ويدفعونهم إلى مجابهة كلّ دعوة تحرّريّة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾[٤١]، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾[٤٢]، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[٤٣].

---

(٣٥) سورة الصافات، الآية ٣٥.
(٣٦) سورة فصّلت، الآية ١٥.
(٣٧) سورة لقمان، الآية ٧.
(٣٨) سورة الأحقاف، الآية ١١.
(٣٩) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.
(٤٠) سورة يونس، الآية ٧٨.
(٤١) سورة الأحزاب، الآية ٦٧.
(٤٢) سورة غافر، الآية ٤٧.
(٤٣) سورة الأعراف، الآيتان ١٠٩ و ١١٠.

وأخيرًا، يعرّضون النبيّ وأتباعه الثائرين على النظام المسيطر وعلى الاتّجاه الفكريّ السائد لأقسى الحملات وأشدّ أنواع التعذيب والأذى والتنكيل؛ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[44]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[45].

هذه هي باختصار الخصائص التي يذكرها القرآن الكريم للمستكبرين. وهناك مواضع أخرى تجاوز فيها القرآن رسم الصورة إلى وضع الإصبع على أفراد مشخّصين ينتمون إلى اتّجاهات معيّنة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[46]، ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[47].

ففرعون معروف، وهامان مستشار فرعون الخاصّ، والشخصيّة الأولى في جهاز فرعون طبعًا، و"ملأ فرعون" هم عليّة القوم في هذا الجهاز، والسائرون في ركاب فرعون ومشاوروه ومساعدوه، وقارون هو صاحب الثروات الطائلة والكنوز التي ﴿مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾.

وباستعراض عشرات الآيات من كلام الله العزيز بشأن الاستكبار، نستطيع أن نفهم المستكبر على النحو التالي: الجناح المسيطر في المجتمع الجاهليّ، الماسك - دون استحقاق - بزمام السلطة السياسيّة والاقتصاديّة. واستمرارًا لاستثماره وتسلّطه الجائر، يمسك أيضًا بزمام الأفكار والمعتقدات المسيطرة على الأذهان، ويعمل بأساليب متنوّعة على ملء الأذهان بأفكار تدفع الأفراد إلى الاستسلام له وإلى الانسجام مع الأوضاع القائمة. وهذا المستكبر يهبّ لمقارعة كلّ دعوة إلى التوعية، فما

---

(٤٤) سورة البروج، الآيات ٤ - ٧.

(٤٥) سورة غافر، الآية ٢٦.

(٤٦) سورة يونس، الآية ٧٥.

(٤٧) سورة العنكبوت، الآية ٣٩.

بالك إذا كانت الدعوة انقلابيّة تغييريّة!! حفاظًا على مصالحه بل على وجوده.

والآن نعود إلى موضوعنا الأساسيّ: كيف عرض الأنبياء عقيدة التوحيد؟

الجواب على هذا السؤال يوضح مواضعَ الحساسيّة التي تستثير المستكبر في هذه العقيدة، وسببَ حساسيّته من هذه المواضع، وسببَ عدم قدرة المستكبر على تحمّل عقيدة التوحيد حين تطرح بهذه الكيفيّة. وجدير بالذكر أنّ الجواب على هذا السؤال يوضح لنا من جانب آخر أهميّة التوحيد باعتباره القاعدة الأساس التي تقوم عليها الرسالة.

نحن نعلم أنّ شعار التوحيد هو أوّل نداء يرفعه النبيّ في المجتمع: "قولوا لا إله إلّا الله تُفلحوا"(٤٨).

وقد نقل **القرآن الكريم** عن أنبياء كرام مثل: نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم خطابهم لأممهم، وكان الخطاب يدور حول محور التوحيد: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٤٩).

هذه الشعارات، كما ترى، تستند بالدرجة الأولى إلى رفض كلّ عبوديّة لغير الله. يدعو النبيّ بهذه الشعارات الجهلة الغافلين المنغمسين في أوحال النظام الجاهليّ الطاغوتيّ أن يكفّوا عن عبوديّة كلّ قطب وقدرة غير الله. وهذا يعني أنّ النبيّ يبدأ دعوته بإعلان الحرب على كلّ الذين يجعلون من أنفسهم آلهة من دون الله.

مَن هم أدعياء الألوهيّة في المجتمع؟ وما معنى إعلان الحرب على الآلهة المزيّفة؟ وما هو الوضع الذي تريد دعوة الأنبياء أنْ توجده في المجتمع؟

إنّ عبارة "أدعياء الألوهيّة" توحي إلى الأذهان عادة أولئك الذين جعلوا من أنفسهم "إلهًا"، أي أولئك الذين ادّعوا لأنفسهم تلك القدرة الخارقة التي كان البشر يؤمن بها على مرّ التاريخ بشكل من الأشكال؛ وهذا فهم

---

(٤٨) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م)، الجزء ١٨، الصفحة ٢٠٢.

(٤٩) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

سطحيّ للعبارة.

كان هناك طبعًا في التاريخ مجرمون تافهون استغلّوا قدرتهم السياسيّة والاجتماعيّة، فأوحوا إلى أفراد أتفه منهم أنّهم آلهة بالمعنى المتقدّم أو أنّهم يحملون جانبًا من روح الإله. ولكن لو ألقينا نظرة على المعنى الواسع لألفاظ "العبادة" و "الربوبيّة" و "الألوهيّة" في القرآن، لاستنتجنا أنّ إطار مفهوم "أدعياء الألوهيّة" أوسع من ذلك الفهم بكثير.

واستعمال مادّة "العبادة" في **القرآن الكريم** يفيد أنّ العبادة تعني التسليم والطاعة المطلقة تجاه إنسان أو أيّ موجود آخر. حين نستسلم استسلامًا أعمى لشخص، ونتحرّك وفقًا لرغباته وأهوائه وأوامره فقد عبدناه، وكلّ قوّة تستطيع أن تُخضعنا لها، وتسيطر على أجسامنا ونفوسنا، وتسخّر طاقاتنا وفقًا لرغباتها، فإنّها تصيّرنا عبيدًا لها سواء كانت هذه القوّة داخل أنفسنا، أم في محيطنا الخارجيّ. ومن أمثلة هذه الاستعمالات القرآنيّة:

حين يخاطب موسى فرعون في بداية دعوته معاتبًا يقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٥٠]. فيردّ فرعون وبطانته فيقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[٥١].

وحين يخاطب إبراهيم أباه قائلًا: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾[٥٢].

وفي خطاب ربّ العالمين للبشريّة قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٥٣].

ويعد الله تعالى عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا

---

(٥٠) سورة الشعراء، الآية ٢٢.

(٥١) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.

(٥٢) سورة مريم، الآية ٤٤.

(٥٣) سورة يس، الآية ٦٠.

وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾[٥٤].

وحول أولئك الذين يعيبون على المؤمنين إيمانهم يقول تعالى: ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[٥٥].

هذه الآيات عبّرت عن الطاعة لفرعون ولبطانته وللطاغوت وللشيطان بكلمة "عبادة". ومن خلال دراسة جميع آيات القرآن في هذا المجال، نخلص إلى أنّ العبادة في المفهوم القرآنيّ: هي الاتّباع والتسليم والطاعة المطلقة أمام قدرة واقعيّة أو وهميّة طوعًا ورغبة أو كُرهًا وإلزامًا، مع الشعور بالتقديس والثناء المعنويّ أو بدونه.. هذه القدرة هي "المعبود" وهذا المطيع هو "العبد" و "العابد".

من خلال الإطار العامّ للمفاهيم المتقدّمة، يتّضح معنى لفظة "الألوهيّة" ولفظة "الله" باعتبارهما تعبيرًا آخر عن كلمة "المعبود".

في النظام الجاهليّ المنحرف المنقسم إلى طبقتين: مستكبرة ومستضعفة، أي المنقسم إلى طبقة مسيطرة ماسكة بزمام جميع الأمور ومترفة طبعًا، وطبقة مهملة مسخّرة ومحرومة لزامًا، تبرز مظاهر الألوهيّة والعبوديّة كعلاقة غير متعادلة بين الطبقتين. ومن العبث أن نبحث وراء موجود مقدّس بشريّ أو حيوانيّ أو جامد، في دراسة آلهة المجتمعات الجاهليّة على مرّ التاريخ. فأبرز مظهر للمعبود والإله في هذه المجتمعات، هو تلك الفئة التي تمارس، اعتمادًا على ارتباطها بالطبقة المستكبرة، عمليةَ إخضاع وإرضاخ الجماهير المستضعفة ودفعها إلى طريق إشباع نهمها وجشعها. فالدين الواقعيّ في هذه المجتمعات هو "الشرك"، لأنّ الآلهة فيها متعدّدة بتعدّد مراكز القوّة المسيطرة التي تستثمر الناس على طريق أهوائها.

---

(٥٤) سورة الزمر، الآية ١٧.

(٥٥) سورة المائدة، الآية ٦٠.

والشرك هو تأليه أفراد إلى جانب الله أو بدلًا منه تعالى. وبتعبير آخر هو: إيكال أمور الحياة إلى غير الله، أو بعبارة أخرى، الاستسلام أمام كلّ قدرة غير الله، والاتّجاه نحو هذه القدرة لدى الحاجة، والسير على طريقها.

بينما التوحيد يقع في النقطة المقابلة للشرك تمامًا؛ يرفض كلّ هذه الآلهة، ويرفض التسليم لها، ويقاوم سيطرتها، ويحصّن القلوب من الركون إليها، ويدفع إلى إزالتها وطردها، ويشدّ الكائن الإنسانيّ بكلّ وجوده إلى الله.

إذ إنّ أوّل شعار رفعه رُسُل الله هو ذلك الرفض وهذا التسليم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٥٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٥٧]. والأنبياء، إذن، أعلنوا زوال النظام الجاهليّ الفاسد المنحطّ بهذا الشعار. حيث دعوا إلى كفاح مرير للطواغيت، أي لحماة هذا النظام وللمستهينين بالقيم الإنسانيّة الأصيلة ولأصحاب تلك القيم التافهة المساندة للظلم والظالمين.

إنّ رفض الشرك هو في الواقع رفض لكلّ الكيانات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة المقوّمة للمجتمع الجاهليّ، والمتّخذة من مذهب الشرك غطاءً وتبريرًا لوضع المجتمع المهزوز. ورفض الآلهة المزيّفة، يعني طرد كلّ الذين دأبوا على استضعاف الجماهير، واستغلالها عن طريق القوّة والتزوير، من أجل إشباع غرائزهم وأهوائهم الجامحة.

لقد اتّجه موسى إلى حرب فرعون بهذا الشعار. وقد تردّد على ألسن بطانة فرعون مسألة رفض موسى لآلهتهم التقليديّة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[٥٨]. غير أنّ فرعون ومَن تبعه كانوا يعلمون جيّدًا أنّ تلك "الآلهة"، أي الأصنام

---

(٥٦) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٥٧) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٥٨) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

الجامدة، ليست إلّا غطاءً وتبريرًا لألوهيّة فرعون وأتباعه. لقد كان الصنم الجامد في الحقيقة تبريرًا لتأليه الأصنام الحيّة. لذا، كان من المنطقيّ تمامًا أن يقف فرعون من دعوة موسى، أي من الدعوة إلى الله الواحد الأحد بارئ السماوات والأرض، موقف المهدّد بالسجن وبقتل مَنْ آمن به وتعذيبهم: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٥٩]، ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[٦٠]، ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٦١].

كلّ هذا التعنّت والتصلّب أمام اسم "الله" ودعوة التوحيد، يعود إلى أنّ هذا النداء لا يعني إلّا الإيمان بحاكميّة الله وحدها على الحياة، ورفض الآلهة المزيّفة. كذا، الارتباط به وحده وتمزيق كلّ قيود العبوديّة الأخرى. وهذه هي روح التوحيد وأبعاده البنّاءة النابضة بالحياة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(٥٩) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

(٦٠) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(٦١) سورة الأعراف، الآية ١٢٤.

سلسلة أدبيّات النهوض

١- العبادة والعبوديّة في الرؤيا والسلوك عند الإمام الخميني	حسن يحيى بدران
٢- عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة	عليّ مهدي زيتون
٣- الشعائر الحسينيّة من المظلوميّة إلى النهوض	شفيق جرادي
٤- على ضفاف الفرات	إبراهيم أمين السيّد
٥- مجتمع المقاومة	نعيم قاسم
٦- الشيخ عبد الحميد بن باديس	إلياس جوادي
٧- الثورة الإسلاميّة في إيران: ظروف النشأة والقيم القياديّة	منوشهر محمّدي
٨- الخطاب عند السيّد حسن نصر الله	أحمد ماجد
٩- الحداثة والمقاومة	طه عبد الرحمن
١٠- الإمام ونهج الاقتدار	شفيق جرادي
١١- قيم النهوض: الحرّيّة - العدالة - الاستقلال الوطنيّ	مرتضى مطهّري
١٢- النهوض الحضاريّ في فكر الإمام موسى الصدر	غسّان فوزي طه